عبقرية الحس الانساني

بقلم عبد اللطيف شرارة

كان الرئيس كوليدج من أفضل ما قدّمت الولايات المتحدة الاميركية من رجال . وفضله ، كل فضله ، انه كان عف اليد، عف اللسان ، يتناول الحياة بقلبه ، ويصرّفها تصريف الواثق من سريرته وصفائها . فتحسبه وقد استعلى بنفسه عن الأرض ، يعيش من انسانيته الصافية في جو هو البراءة والصحو والهناءة .

راح هذا الرئيس بعد ان انتهت مدة رئاسته ، يمارس الصحافة . وكتب اول مقالة في صحيفة « كوزمو بوليتان ماجازين » عنوانها : « حياتي في البيت الأبيض » تحدث فيها ، بصورة خاصة ، عن الحادث الأليم الذي أقضّ عليه مضجع الرئاسة، وهو وفاة ولده البالغ السادسة عشرة من سنيه، قال : « ... لو لم أُنتخب للرئاسة ، لما كان ولدي اضطر الى ان يعيش في البيت الأبيض ، بل كان قضى ايامه في حقول التبغ التي أتعهدها ، حيث يحيا حياة سليمة ! أما في واشنطن فقد سيق الى البطالة ، وأوغل في مراس اللعب بالتنس حتى فُكّت قدمه ، ومات نتيجة التسمم الذي اصابه » . وخلص كوليدج الصحافي الى هذه النتيجة المليئة بالحسرة : « لم اكن اعلم ان اقامتي في البيت الابيض ، ستكلفني هذا الثمن الغالي ! » .

اريد ان اشير الى هذه الظاهرة في حياة كل انسان ، امرأة كان أو رجلًا ، وهي ان عبقرية الحس الانساني لا تتأكد، ولا تفصح عن نفسها ، إلا حين نواجه الموت ، ونتملّى من أثره في نفوسنا ، في الحياة من حولنا ، في العالم الذي يحيطنا، وإذ ذاك ينتقل البشريُّ ، اي بشري ، من افق الى افق ، وتتفجر في حنايا كيانه ينابيع حس جديد تذوب معه الاطماع ، وتتداعى الامجاد ، وتهزل العظمة ، ويتوارى كل ما يثير العداوة ، او يوقظ الفتنة .

ذلك بأن الاشراف على الموت من زاوية القلب الحي ، واطلاع النفس على أثره فيها ، وهي تنعم بالحياة ، يردها الى حالة من الصفاء لا تلبث معها ان تسمو وتحلّق، وتشاهد الحياة من ذروة سموّها فلا تفكر بعد الا بغيرها ، وآلام غيرها ، وعذاب غيرها ..

ترى كيف يُفكر بالحرب امرؤ ادرك في نفسه ، او في غيره ، لوعة الموت ؟!

— ١ —

المشكلة ليست دينية !

تلك أولى معطيات التاريخ ، وانها لحقيقة جلية واضحة في إطار المدنية الراهنة التي يعاني فيها الانسان بلاء لم يسبق له ان عرفه فيما مضى من عصور . فالدين ، أي دين ، لم يحاول يوماً من الايام ان يفرض نفسه بالاكراه ، او يجتذب الناس اليه بالاغراء ، وإنما كان ولا يزال يعمل على نقل الحيوان البشري الى انسانيته الكامنة ، او البعيدة ، او الغائبة ، او المنسية ، بيد انه لم يوفق بعد الى شيء مما عمل له ، وجهد في سبيله ، وضحى من اجله .

وكان اخفاق الدين فيما حاول من بناء الانسان ، وسيلة الى النيل منه كأداة فعالة . وكان الصراع بين المتدينين والوثنيين وسيلة ثانية الى نشوء مبادىء جديدة وعقائد جديدة ، مما جعل الدين نفسه «مشكلة» تحتاج الى حل بما حقق العلم من اختراعات واهتدى اليه من اكتشافات .

هذا يعني ان استثمار الفكر الديني او النزعة الدينية من قِبل البهيميين من الناس الذين لم يخلصوا من حيوانيتهم، ولا فكروا بغير منافعهم الشخصية ، هَدَم الحس الديني الخالص ، وحمّل الأديان ما لا تطيق من الاتجاهات في السلوك ، والاعمال في الحياة العامة ، وادخل عليها ما هي براء منه في كثير من الأحوال والظروف .

لا سبيل إذن ، وتلك هي الحال ، الى التفكير بالدين بعدُ كوسيلة من وسائل الخلاص العام، وهو الذي تحوّل الى وسيلة سياسية للكسب ، والزعامة والاستعمار .. ويجب ان يُنظر

اليه كعقيدة شخصية بحت ، من شاء آمن بها ، ومن شاء كفر .

وانما قلت «يجب» لأن الواقع النفسي يفرض هذا الوجوب، فليس لأحد أن يُكره احداً على الايمان من جهة، ولأن مظاهر الواقع الحيوي تؤكد صواب ما نقرر من جهة ثانية .

واذا كانت المشكلة غير دينية ، فهي من طريق اولى، غير طائفية او مذهبية ، فقد روى الاستاذ « إتيان ده غريف » ، وهو من ألمع مفكري هذا العصر ، ما يلي :

« .. كنت اثناء المذابح الاسبانية الاهلية الاخيرة، افتش يوماً في صحيفة كاثوليكية ،علّي أجد ولو إشارة رأفة تعارض اعمال الكوديجو (فرانكو) ولكن عبثاً ، فاني لم اعثر على كلمة واحدة تنكر أو تشجب ، بل على العكس ، كانت الصحيفة المشار اليها تتخذ جميع الاحتياطات لتمنع القارىء من اي شعور بالعطف قد يخالجه نحو ضحايا المآسي الدائرة ، وتلح في ذكر مساويء المعسكر المناوىء ، تبرر بها كل شيء [1] ».

ثم لاحظ تحول الفكر الديني في المانيا الشرقية بتأثير واقعها السياسي اليوم ، فقد أصدر حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي كتاباً ضمنه ٢٢ مقالاً بعنوان « الواقعية المسيحية » جاء فيها :

« .. على المسيحي ان يعترف بصحة الاساس الاقتصادي التحليلي الذي وضعته الماركسية واللينينية ، دون ان يكون من اتباع المادية الجدلية ! » وفي مقام آخر :

« ان اشتراكية اليوم تقدم للمسيحي افضل فرصة يغتنمها لتحقيق اهداف المسيح، ومراس النصرانية العملية، فان العقيدة التي نمت على يد كارل ماركس لاقامة نظام اجتماعي افضل ، وجدت تحقيقها الامثل في الاتحاد السوفياتي [2] »

ولمَ اذهب بعيداً في التقاط الامثلة ولدينا نحن، ابناء البلاد العربية مسلمين ونصارى على السواء ، المثل الصارخ الساطع في مأساة فلسطين ، واثرها المفجع في حياة كل عربي، وكل شرقي، وكل انسان ؟! ايجرؤ مسيحي بعد او مسلم على اعتبار نفسه متديناً وقد اذل اليهود اخوانه في فلسطين ؟! ام يجرؤ يهودي على اعتبار نفسه انساناً بعد الافاعيل التي فعلها في طبريا ودير ياسين وغيرها !

ان قيام دولة اسمها « اسرائيل » وسط البلاد العربية ، بمعونة بعض المسيحيين، وخيانة بعض المسلمين دليل لا يدحض، على ما بلغت الحضارة الغربية الراهنة من تقهقر وانحراف وانحطاط ، لأن تلك الدولة قامت على انقاض العدالة والشرف والحرية والكرامة الانسانية، ولا تزال قائمة على تلك الانقاض!

والصهيونية نفسها ما هي ؟ اليست دعواها في الدين، اطول واعرض من اي دعوى دينية في الارض ؟!

ايجوز بعد ، وهل يصح ان نحسب أن مشكلة العالم دينية او مذهبية ؟! واي عقل يرى هذا الانحلال عند أدعياء الدين من كل جنس وملة ، ثم يواجه الحياة العصرية بروح طائفية ، ولا يكون سخيفاً مهترئاً ، ضعيفاً ، هزيلاً ؟

— ٢ —

.. وليست المشكلة علمية !

العلم في متناول صاحبه « أداة » لا اقل ولا اكثر . والأداة ، اياً كان نوعها ، تتركز قيمتها في استعمالها ووجهة استعمالها ، فهي لا تملك بطبيعتها ان توجه حتى نفسها ، لأنها لا تنطوي على قيمة ذاتية تستلهما من نفسها ، اي لا بد للاداة ، بتعبير آخر ، من ضمير انساني يوجه استعمالها ، لتصبح خيرة مفيدة . فاذا فقد هذا الضمير ، انقلبت الاداة — والعلم اضخم الادوات — الى سم قاتل . وتلك هي مأساة المدنية الغربية التي فقدت الضمير الانساني واحتفظت بالعلم!

بيد ان هذه الكارثة التي اصابت المدنية العربية في ضميرها ، وجعلتها تخسر اجمل ما في كيان الانسان ارجعت للشرقي هجيته الاولى ، وردته الى حيوانيته ، لان الشرقي لا يملك الاداة العلمية التي يملكها الغربي ، فانتفض على تراثه حين وجد ان تراثه لا يعينه على اعدائه ، وتحولت القضية من صراع المباديء والعقائد الى صراع على البقاء . فموقف الغرب « اعتداء علمي » وموقف الشرق « دفاع عن النفس » تحركه الغريزة .

ذلك يدلنا دلالة قيمة على اصالة الحس الانساني في الشرق ، وعلى هزال هذا الحس او ضآلته في الغرب ، ثم يوضح بشكل منطقي علمي ان مشكلة العالم الراهن ليست علمية ، لأن الفرق، في الباعث ، شاسع بعيد ، بين من يحرّكه حسه ومن يحركه علمه . الاول ذو ضمير ، ذو وجدان ، ذو شرف ، والثاني عالق باهداب « الغاية المادية » التي يتكشف عنها الدرس وينتهي اليها الحساب ! الاول مسالم إلا اذا اصبحت سلامته في خطر ، والثاني محارب الا اذا اصبحت منافعه في خطر فانه يسالم إبقاء عليها .

---

(١) Notre destinée et nos instincts p.119

(٢) Time, November 3, 1952

يقول العلامة ألبرت اينشتين : « انا اؤمن بالحدس والالهام. والخيال اهم بكثير من المعرفة ، لان المعرفة محدودة ، بينما الخيال يعانق الكون بكامله ، حافزاً على التقدم وباعثـاً على التطور . فهو ، بالضبط والدقة ، عـامل واقعي في البحث العلمي » . [1]

إزاء هذه الحقيقة العلمية ، نجد ان « حس الشعب » هنـا ، وفي كل مـكان لم يتعرض به للانحراف العقلي الغربي ، اي لم يتأثر بمصالح استعمارية مباشرة ، يميل ميلاً واضحاً الى مقاومة الخزعبلات العلمية ، بعد ان كابد من الخزعبلات الدينية .

وسر هذا الميل عند الشعوب الشرقية يكمن في انهـا لم تعرف للعلم حسنة واحـدة في حياتها السياسية ولا نالها من حسناته ، في حياتها الاجتماعية ، غير الأذى . فالشرقيون يشعرون ان العلم الغربي هو الذي نشر الاباحيـة ، وهو الذي هدّم الاخلاق ، وهو الذي قلب الاوضاع في البـلاد لمصلحة الغرب وسيطرته .

هذا هو الشعور الشعبي ، وهو كما قرر اينشتين « اهم بكثير من المعرفة » . فاذا كان الشعب غير متعلم في الصين ، او في الهند ، او في البلاد العربية ، فهذا لا يعني ابداً انه لا يعرف عيوب المدنية الراهنة ، وانه يجهل اتجاهاتها واغراضها .

لقد وقف الدكتور محمد حسين هيكل في مجلس الشيوخ المصري ، على اثر قرار التقسيم ، وتحدث انه شاهد احد مندوبي الدول « يبكي » وهو يوقع القرار ، وفي هذا الحادث وحده ما ينهض بالبرهان على ان الضمير الغربي غير مرتاح الى ما اقدم عليه في فلسطين ، فهل يرتاح هذا الضمير الى « الثرثرات العلمية » التي تقذف بها حناجر الطمع والتعصب ؟!

ووقف المرحوم ابراهيم هنانو في احد مواقف الجهاد وقال: « .. اننا نريـد الاستقلال وسيلة ، ولا نريده غاية ! » وراح الشعب يؤيده ، لا لأنه يجد في ابراهيم « عالماً » من العلماء ، بل لأنه كان يحس باخلاص ابراهيم هنانو . فالقضية الانسانية ، في اي شعب ، وفي اي بيئة ، وفي اي امـة ، ليست قضية علم ، ولا قضية دين . وانما هي قضية حس إنساني نبيل .

ولكن الحس الانساني ليس من الوفرة والابتذال بحيث نجده في كل مكان ، فهناك مع شديد الأسف ، بيئآت لا تزال خاضعة للجانب « البهيمي » الصرف من الحيـاتين : الخاصة والعامة . وهذه البيئآت البهيمية النزعة هي التي تستغل الدين ، والطائفة ، والعلم ، والمدنية ، وما الى ذلك من الفاظ وصور ومعان لتحتفظ بما ورثت من سلطة ، او اتيح لها من ثروة ، او نالت من امتيازات .

ذلك يجعلنا تجاه واجب خطير — والضمير في « يجعلنـا » راجع لجميع ابناء الارض — هو وضع العلم في منزلته الحقيقية ، وانتزاعه من القيم الكبرى التي يدافع عنهـا ، واحلال الحس الانساني النبيل محله عوضاً عنه ، فالحس الانساني لا يجرم ، ولا يكون اداة في يد الاجرام ، كما هو الشأن في علوم الصهاينـة وانصارهم في الغرب والشرق !

— ٣ —

ولكن ... ما هو هذا الحس ؟ وكيف يظهر ؟

كان المتنبي يقول :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس ، روّى رمحه غير راحم!

فهل يعني ذلك ان المعرفة تؤول الى « القسوة » او الى العنف ؟ ام هو يعني ان المتنبي — وهو الشاعر المفكر — كان ضئيل الحس الانساني ؟

لا ذاك ولا هذا ! والحقيقة هي ان أبا الطيب المتنبي كان يسير ، يمشي من عصره ، في منحدر وعر زلت به جميع الاقدام وطاشت فيه سهام الرجـال ، وقلت البطولات ، وندرت العبقريات ولم يبق فيه لفاضل حرمـة ، ولا لفضيلة احترام ، فكان من اثر هذا الجوّ الخانق على نفس ابي الطيب ان ردّه الى حالة ليست باليأس ، وانما هي « ثورة اليأس » ، فان ذوي الحس الانساني المرهف لا يعرفون اليأس ولا يتعرفون اليه ، وهم ازهد الناس فيه ، وابعـدهم عن الانصياع لتهاويله ، والاسترسال مع احلامه وافيونه .

وليس هذا كل شيء ، فقد كان المتنبي عربياً في دنيا تنكرت لعروبتها ، ودويلات تحزّبت لاصحابها ورؤسائها من غير ان تلتفت للبلاء الذي يحل بمجموعها من جراء التفرقة والعصبية ، فانفرط بذلك ما كان معقوداً في نفسه من آمال ، وانحل ما كان يرتبط به من مثل عليا واهداف ، وكان يأسه السياسي مبعث ثورته الشعرية ! هذه هي قصة المتنبي ، وهذا سر عنفه على الناس والزمان !

وقريب من ابي الطيب موقف ابي العلاء المعري ، فليس ثمة من شك قط ، ان ابا العلاء ، وهو السوري العربي ، امتداد

(١) Life, Now and Forever by A. J. Wills P. 37

للمتنبي العربي ، بمعنى ان الحس الانساني عند المعري كان يتمثل في نقمته على الاوضاع الاجتماعية السائدة ، وعلى السقم العقلي الرائن على تفكير قومه ، واخيراً على الكون والارض والانسان ، فاذا به يصرخ :

والأرض للطوفان محتاجةٌ لعلَّها من دَرَنٍ تُغسَل !

كلما فكرت في هذين الحكيمين : المتنبي والمعري ، وما هما عليه من نبل الحس ، وشرف الغاية ، وعرامة النقمة ، انتقلت فوراً الى مقارنة احوالهما بروّاد الفكر الحديث في اوربا واميركا وآسيا ، فأجد بعد نهاية المطاف ، ان الثورات التي تعاقبت خلال الاعصر الاخيرة من الفرنسية ، الى البلشفية ، الى الهندية والصينية انما نشأت جميعها عن تعارض الحس الانساني مع الظلم الاجتماعي والسياسي .

هذي قضية خطيرة ذات معطيات قانونية وسياسية في آن واحد ، اي ان تصادم الحس الانساني واصحاب السلطة ، يجعل السلطة نفسها في مأزق حرج ، ويحملنا طوعاً على اعادة النظر في كل سلطة لا تقيم وزناً للجانب الانساني من انظمتها ومؤسساتها وتطبيقها للقواعد الانسانية الخيرة ، فاذا كانت النقمة على السلطة هي مظهر الحس الانساني ، كما هو الامر عند المعري او المتنبي او غيرهما ممن يشاكلونهما في روسيا القيصرية ، وفرنسا الملكية ، واميركا المستعمرة عهد واشنطون ، و و و .. الخ فهذا يفيد ان قد آن الاوان لجعل الحس الانساني وحده « معياراً » للحياة السياسية ، والدولية في داخل كل امة وخارجها .

وهذا الحس الذي لا يمكننا ، في اطار معارفنا الراهنة ومدنيتنا القائمة ، ان نرضى بغيره معياراً سياسياً يحتم الاخذ بالقومية كمبدأ تاريخي محتوم ، وينفيها كعصبية قبلية او عنصرية او دينية او فكرية ، فأنت لا تستطيع ان تجعل من الهندونيسي مثلا هولندياً بالاكراه ، وتحتفظ بانسانيتك ، كما تبقي عليه تراثه الانساني ! هذه العملية الخطرة ، وما يشاكلها ، تقضي على عاملها ومعمولها في آن واحد .

وهو – اي الحس الانساني – يحتم ايضاً ان يسود السلام جميع مناطق الكرة الارضية ، على ان يواكب هذا السلام تعاون دولي يبقي على كل امة ، وكل شعب حقوقه الاساسية في الحياة ، والحرية ، والكرامة ، فلا يفرض عليه ما لا ينبع من نفسه وتاريخه ، ولا يجعله في ضيق من رزقه وارضه وانطلاقه نحو آفاق المعرفة .

وهو يحتم اخيراً ان يفتح باب العدالة على مصراعيه في كل وطن ، وكل اقليم ، وكل امة ، ولكل فرد من النساء والرجال على السواء ، بحيث يهتم القانون ، قبل كل شيء ، بحياة المواطن ورعايتها ، وتربية العقول والنفوس قبل حفظ حقوق السلطة .

ولا بد من الاشارة الى ان الحس الانساني هذا اوفر ما يكون في المرأة . فالمرأة مهيأة بطبيعتها لبناء الكيان القومي . والحفاظ على السلام ، والرغبة الملحة في العدل ، فاذا وجهت المرأة توجيهاً صالحاً ، اي منسجماً مع طبيعتها الانسانية ، وانتزع من نفسها ما قد يشوبها من شوائب التعصب والسخف والاباحية على مختلف انواعها ، وتنوّر ذهنها حتى شارفت قمم الحياة ، هداها حدسها وإلهامها اللذان يؤمن بهما اينشتين إلى كل ما يرفع الانسان . وتلك هي عبقرية الحس الانساني .

عبد اللطيف شراره

احدث مؤلفات

الاستاذ عبدالعزيز سيدالأهل

المفتش بوزارة المعارف المصرية

		ق . ل
١ – النكتة المصرية	١٩٤٨	١٠٠
٢ – يوم وليلة	١٩٤٩	١٥٠
٣ – ملحمة الفالوجة	١٩٤٩	٢٠٠
٤ – عبدالله بن المعتز	١٩٥١	٣٠٠
٥ – عبقرية ابي تمام	١٩٥١	١٥٠
٦ – ابو طالب	١٩٥١	١٠٠
٧ – عبقرية البحتري	١٩٥٣	١٥٠

ويصدر قريباً جدا

زينب

سيدة الطفّ

قصة ادبية تاريخية لزينب بنت علي عليها السلام

وتطلب هذه الكتب كلها من دار العلم للملايين في بيروت